

محاضرة رقم 6

أرنست بلوخ (1885-1977)

تمثل الماركسية أرضية فلسفية خصبة احتضنها كثير من الفلاسفة في الآونة المعاصرة، إذ يعتبر "بلوخ" من أهم الماركسيين الجدد في القرن العشرين، الذين حاولوا التنقيب في ابراز الجانب الانساني الخالص فيها، وتكثيف العمل على غرس الوعي الاجتماعي من أجل تحرير البشرية من أسر العبودية، والطموح إلى ترسيخ فلسفة تحمل هوية الأمل على ضوء ما تحمله من حذور تاريخية وثورية متجهة إلى احترام النقد والطموح إلى تغيير العالم، فما طبيعة المنحى الذي تبناه "بلوخ" في عرضه الفلسفي ؟

تشكل فكره الفلسفي:

تمثل المشارب الفكرية "لأرنست بلوخ" من عناصر ثقافية عديدة، منها التراث الألماني على الخصوص، والفلسفات الشرقية والغربية، والانتماء إلى الماركسية اعطاه أصالة مخصصة في التعامل معها وفهم تطبيقاتها ليس على المستوى السياسي فقط، بل يتم النظر إليها على أساس الطاقة التي تحملها، كما منحه هذا التوجه الفلسفي قراءة الهيجلية، والتمكن من استخلاص العمق النقدي فيها، فكان الربط بين الهيجلية والماركسية، قد منحه يوتوبية الممارسة النقدية المستحدثة . وانطلاقاً من هذا يرى "بلوخ" وجوب استعادة كشف الماركسية كسلاح نقدي ضد كل واقعية اجتماعية تعسفية..نقد ضد الرأسمالية الجديدة، وضد النمط الاشتراكي السوفياتي"¹.

من جانب آخر، فإن احتضان "بلوخ" للهيجلية، سيعطي له دعامة فكرية قوية في نقد الواقع باسم عقلانية جديدة، على ضوء أن هيجل قد مهد طريق للتفكير تجاه المعرفة الذاتية المتصلة بالإنسان والكشف عن المسار الذاتي والموضوعي لتطور الوعي، أما داخل الماركسية، فإنه وجد نبوءة عقلانية

¹ André Tosel, le développement de du marxisme en Europe, ency,de la pléiade,t3, Ed, Gallimard, 1974, p.983

بيّنت له حقيقة الثورة والاشتراكية اللتان يعتبرهما ضربان من اليوتوبيا الانسانية التي حددت فكر "ماركس" الذي بزغ في مرحلة الشباب.

أسهمت الأزمان الروحية التي عاشها الغرب في بدايات القرن الماضي العودة إلى فتح النقاش الواسع بين المهتمين بالعلوم الانسانية والاجتماعية حول تشكل الظاهرة الدينية وتأثيراتها المختلفة، إذا تفاعلت مدرسة فرانكفورت مع هذه الانشغالات، فيعتبر "أرنست بلوخ" واحداً من الوجوه البارزة في فصول هذا التأثير.

البحث عن معنى الدين :

يعتبر "بلوخ" من الأسماء الفلسفية التي تروم تجديد الماركسية واعطاء لها الوجه الانساني، وأنسنة الانسان على ضوء أن الفلسفة أصبحت تحمل وجها انسانياً مع "ماركس"، لأن الطريق الذي رسمه "ماركس" يتجه صوب تحقيق الغايات الإنسانية والاجتماعية، وما حدث من تغيرات سياسية واقتصادية في القرن العشرين يوحي بشكل أوبأخر على الأهمية التي يجب أن يحضى بها الفكر الديني. " من هذا المؤلف الاعتقادي الراسخ في الذهن كصورة بديهية يبدأ بلوخ بتفكيك الفكر الديني وبنيته النظرية ثم ارتباطه التطبيقي مع الواقع، فعنده، مثلما هو الحال عند ماركس، يبقى البؤس الديني هو التعبير التام عن البؤس الواقعي واحتجاجاً ضد الواقع. فإن جدة الأفق النقدي الذي فتحه كتاب "بلوخ" "الاحاد داخل المسيحية" تتمثل في اتمام نمط بنائي معين للمشروع الماركسي في نقد الدين"¹.

هذا الاحتضان الفلسفي "لماركس" من قبل "بلوخ"، يوحي بأنه قد حدث له تواصل وثيق بنصوص الفلسفة الدينية، خاصة منها العهد القديم والانجيل، لذلك رأى بأن هناك مشروعية الربط بين الماركسية بوصفها أيديولوجية ثورية مع اللاهوت، على أساس أن القوة الثورية مبنوثة في الدين وتكمن بداخله، وبالتالي تتجلى من خلالها أصالة المفاهيم الاشتراكية، كالثورة

¹ علاء طاهر، مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هابرماس منشورات مركز الانماء القومي، بيروت لبنان ط1، (د.ت).

والعدالة الاجتماعية والمساواة، "يفضح الماركسي تعليقات البورجوازية المكشوفة"¹.

لهذا اعتقد "بلوخ" أنه لا يجب إغفال ضرورة معرفة الدوافع الخاصة في الروح الانسانية، خاصة في الفترات التي تهيمن فيها العاطفة الدينية وما تطمح إليه البشرية في تحقيق حلم الأخوة.

لذلك كانت رؤية "بلوخ" أكثر قرابة مع "فيبر" في تفسير مجريات التاريخ ووحاول ابراز أثر القيم الأخلاقية في توجيه مسار الحداثة الغربية في مختلف مراحلها التطورية، مبتعداً عن "ماركس" فهذا الأخير في نظر "بلوخ" وتحت تأثير الوضعية نقل الشيوعية من المجال اللاهوتي ليضعها في ميدان الاقتصاد السياسي.

هذا لا يمكن وصف "بلوخ" بأنه لاهوتي، بل اشتراكي الفكر، ولكن اشتراكيته تحمل بصمات واقعية، إذ تبنى الاشتراكية لا تقضي إلى تحويل الناس إلى جحيم، بل تهدف إلى وضع السماء على الأرض، على اعتبار أن الاشتراكية تمثل جوهر التاريخ والتغيير الذي تطمح إليه، وهو تجسيد المثل العليا على أرض الواقع. " فليس الوعي هو الذي يحدد الحياة، بل إن الحياة هي التي تحدد الوعي "¹.

انطلاقاً من هذا الموقف الذي لجأ إليه "بلوخ" في اعتماد لغة لاهوتية في التبشير بمستقبل واعد وخلص البشرية جعلته يوجه سهامه النقدية لرجال الاكليروس الذين دافعوا عن الاغنياء وبرروا حينها الجرائم والاضطهاد الذي مورس ضد اليهود، وهذه الوقائع التاريخية، كانت عاملاً مقنعاً لأنهمام بالدين الذي يعد أفيون الشعوب.

يعتقد "بلوخ" أن العبارة التي ردها "ماركس" بأن الدين أفيون الشعوب، يجب قراءتها في السياق الذي أتت فيه، يقول "ماركس": " الدين هو التحقق الخيالي للجوهر الانساني لأن الكائن الانساني لا يملك حقيقة الواقع فمن جهة يعتبر البؤس الديني التعبير عن الواقع الحقيقي وفي نفس

¹ عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجيا، الدار البيضاء، 1980/ ص 104

¹ Marx et Engels, L'idéologie allemande, E.S Paris, 1968, p.51

الوقت، هو تعبير عن الاحتجاج ضد هذا البؤس الحقيقي، إن الدين، هو صرخة الكائن المضطهد وقلب عالم بلا قلب وروح ظروف بلا روح، إنه أفيون الشعوب، إن إلغاء الدين هو إلغاء لسعادة الشعب الخيالية، وهذا الأمر يمثل شرطاً أساسياً للسعادة الحقيقية".

إن إعادة عبارة الدين أفيون الشعوب، ركز فيها "بلوخ" على عبارة الصرخة، الاحتجاج، وهي مناسبة للتذكير بما كان يردده الفلاحون خلال حربهم في قسمهم، وكانت هذه الحرب ودون تحفظ غطاء دينياً كما قال "كاوتسكي" وجاء نوع هذا القسم من الانجيل كما لو لم يكن الدين عودة إلى أحضان الكنيسة"، لأنه المراحل الفكرية السابقة جعلت " كل الميادين مربوطة بالدين، البروتستانتية دين، ودين يطبع الثقافة ويحررها بصمت، بهدوء، بفعل طويل، لكن يحررها أولاً وأخيراً بضربه السلطة في الدين، السلطة الخارجية، الانسانية العليا"¹.

إن انبثاق الجهود الرامية إلى تكثيف الممارسة النقدية تجاه البورجوازية، يعطي انطباعاً بأن "بلوخ" وغيره من رواد مدرسة فرانكفورت تمكنوا من تشخيص حقيقة الحضارة الغربية على أساس، أنهم عايشوا مراحل التحولات التي عرفتتها الساحة الألمانية من التغيرات التي حصل فيها، هذا الذي دفعهم إلى الارتباط بالفلسفة الماركسية، وحياء الطاقة الفكرية التي تتمتع بها على ضوء أنها تتوفر على فهم نقدي عميق لمفهوم الثورة والتمسك بالأمل، مما يحدد التمهيديات الكبرى لبروز التنظيمات النظرية المفعمة بالنشاطات السياسية والتغيرات الدينية والاقتصادية التي تعرفها المجتمعات المعاصرة.

¹ أرنست بلوخ، عصر النهضة، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة و النشر، بيروت - لبنان، 1980، ص